مركز المسبار للدراسات والبحوث
Al Mesbar Studies & Research Centre

عاصفة الحزم

التحالفات والأبعاد السياسية

الكتاب 118 أكتوبر (تشرين الأول) 2016

كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث

مستقبل العلاقات السودانية- الخليجية

الصادق الفقيه(*)

مثلت «عاصفة الحزم» مرحلة جديدة في العلاقات السودانية- الخليجية، فكيف نقرأ مستقبل هذه العلاقات، وما هي مرتكزات استمرارها؟ مع التأكيد أن موضوع هذا البحث لن يكون استعراض التاريخ، الذي يُسمى بكلياته «الماضي»، والذي يُقابل في شأن العلاقات السودانية- الخليجية، مجازاً، ما يسمى بخطأ الضرورة السياسية، التي ربطته بإيران، وإنما موضوعه: «المستقبل»، أو الحاضر القاصد لإيجابية الغد، وطبيعة المرتكزات التي تتطلبها ضمانات استمرار هذه العلاقات، واستدامتها، بين الطرفين.

(*) دبلوماسي سوداني وباحث متخصص في الإعلام السياسي والعلاقات الدولية.

إنها مسألةٌ قلّ أن عُرِضَت للبحث الموضوعي الجاد، ونَدَر أن بُحثت بشكل استقصائي عام، ولكنها مع ذلك ذات أثر عميق في تعريف طبيعة هذه العلاقات، ومُؤكِدة لأهمية وجود السياسات العملية لمصالح الطاقات الكامنة لدى الجانبين، التي عندما تُبرز نفسها للتحليل والتقويم ستُظهِر قوة الحاجة لمسألة المستقبل الحيوية. إذ إن مرحلة التقدم الحالية التي دخلتها العلاقات، تَعرِضُ نفسها ضمن شروط وظيفية جديدة، وتتطلب معالجة سياسية استراتيجية متجددة، ونظرة منطقية وموضوعية للمصالح الاقتصادية المشتركة، وتناولاً إعلامياً أكثر التزاماً وعمقاً مما كانت تتعجله المعالجات المبتسرة في الماضي.

إن العلاقات السودانية- الإيرانية، كمعادل لحالة الماضي، وبين تجديد الطاقة لقوة التقارب السوداني- الخليجي، كمحدد لخطوات الحاضر نحو المستقبل، قد أبرزت تجليات ظاهرة انقسام التاريخ، الذي علينا أن نُعيد تعريفه، ليس بمحاكمة لم تعد مجدية للماضي، وإنما النظر لتقارب السودان مع دول الخليج، وبالأخص مشاركة السودان المتميزة في «عاصفة الحزم» والتحالف العربي الإسلامي العسكري، باعتباره يُشكل نقطة قوة ودعم معنوي ومادي قد تؤدي إلى خطوات بناءة تجاه المستقبل. أما فيما يتعلق بمرتكزات الاستمرار وفواعل ومحركات الاستدامة، فقد يظهر هذا الانقسام وكأنه قديم جديد، وقد يبدو للبعض كحقيقة أولية بديهية، ولكن بالرغم من ذلك ليس هناك موقف آخر يتعارض مع الاتجاه العام للرأي العام الحالي، كما كان يتعارض الموقف السياسي القديم.

لقد كانت النظرة إلى السودان تقول: إنه بانتمائه العربي وموقعه الجغرافي الاستراتيجي ضروري للأمن الخليجي، وإنه عظيم الخطر، في الوقت نفسه، إذا دخل في تحالف مع إيران، فله ساحل ممتد على البحر الأحمر يحاول الإيرانيون استعماله ضد السعودية، كما سيحاولون استغلال عمقه الأفريقي، ولطالما أثيرت مخاوف من تحول القارة السمراء، لامتداد إيراني عبر مشاريع التوسع السياسي والاقتصادي، ومؤسسات التشيع التابعة لطهران، والتي تدخل إلى القارة الفقيرة من باب المساعدات الداعمة لمجتمعاتها وحكوماتها الهشّة. لذلك، كان من الضروري، حتى لا تقع أفريقيا فريسة ينهكها عدد لا يحصى من الصراعات، أن يكون السودان أقوى من الآخرين

بدعم أشقائه الخليجيين له حتى يُناط به أمر تشكيل المناعة المطلوبة للحماية. وقد كانت الضرورة تقضي دائماً باتخاذ خطة الدفاع ضد التدخلات بالتقارب، الذي ينفي شبهات التوتر السوداني- الخليجي. ولذلك كان هدفُ الانخراط النشط في «عاصفة الحزم» وضعَ حَدٍ لهذه الشبهات، التي يجب أن يتحمل السودان مسؤولية المشاركة فيها مع أشقائه العرب والمسلمين، وهذا التحديد والتجديد في شكل العلاقة هو ما يعنيه المستقبل، الذي يحاول الطرفان إرساء أسسه بضمانات الثقة المتنامية بينهما.

وبغض النظر عما اعترى الماضي من عقبات التآزر المفترضة بين الجانبين، وقبل هذا وبعده، تُعتبر العلاقات السودانية- الخليجية عميقة وقديمة بمعايير الزمان والمكان، إذ حددتها عوامل الإرث التاريخي المشترك: الديموغرافيا وترابط الدم واللغة والثقافة والدين، والجغرافيا الطبيعية والسياسية؛ الجوار والأمن والمصير الاستراتيجي. لذلك هنالك عديد من المصالح المشتركة في مختلف المجالات، التي تستنهض قوى الحاضر، وتستشرفها تطلعات المستقبل، وهي من الأهمية بحيث إنها يجب أن تعمل على تعزيز علاقات التكامل بين الطرفين واستمراريتها.

يتناول بحثنا جملة من القضايا المفصلية حول طبيعة العلاقات السودانية- الخليجية، في حيز زمني ضيق؛ قبل وبعد «عاصفة الحزم»، والتركيز على أهمية التعاون السياسي والاقتصادي والأمني بين السودان ودول الخليج، وحجم التبادلات المشتركة بينهما، ومستقبل العلاقات في أبعادها المختلفة. ونُناقش هنا، أهمية الضروريات التي يتطلبها هذا التعاون، ومن ثم مستقبل العلاقات بين الجانبين، وكيفية تطويرها لتتحول إلى تكامل يعمل على تقوية التعاون في مختلف المجالات الاستراتيجية الأخرى.

إشكالية التناظر

إن الذي يربط بين الدول، التي تنادت لـ«عاصفة الحزم»، يُشْبِه في تَشَكُّله المواقف فائقة التناظر، التي تمثل عامل جذب مهماً؛ في بعدها المادي، أقرب لنظرية ميكانيكا الكم، أو ما يُعرف بـ«نظرية الأوتار الفائقة» -(Superstring theory)،

التي تحتوي على القوى الثلاث للطبيعة؛ متمثلة في الكهرومغناطيسية، والقوى النووية الضعيفة، والقوى النووية القوية، بينما لا تحتوي على ما نجده في جاذبية النظرية النسبية لألبرت أينشتاين... وهذا ما يسمى بمشكلة الجاذبية الكمية، فأتت نظرية «الأوتار الفائقة» لتحل هذه المعضلة الفيزيائية ولتزاوج بين ميكانيكا الكم والنسبية، اللتين حيرتا العلماء، لأنهما أثبتتا أنهما صحيحتان حينما نطبقهما على حدة»[1]. فيما أثبتت «عاصفة الحزم» طبيعة الخصائص الأولية للمواقف المتناظرة للسودان ودول الخليج، وجددت الفاعلية للقوى الأساسية المُشَكِّلة لروح التضامن، ضمن نظرية سياسية متناغمة يمكن نمذجتها مادياً بإطار اهتزازات الأوتار فائقة التناظر، أو هي في بُعدِها العملي شبيهة بنظرية الأوتار المشار إليها، كمحاكاة للتجدد والانسجام والتناغم[2].

وهذا التَجَدُد الفاعل للعلاقات السودانية- الخليجية يقودنا بالقطع إلى الاعتقاد بأن الماضي فعلاً هو الحاضر، إذا استطعنا أن نزيل عنه المعلوم والمظنون والمزعوم من الشبهات، بمعنى أن قدرتنا على إعادة التركيب الموضوعي للحقائق لمعنى المعطيات المؤسسة لهذه الحقائق، التي نقوم بها، تعتمد على التناظرات الوظيفية من الماضي، والقياس مع العالم المحيط بنا لتحقيق الانسجام والتناغم. وهنا، يكون هدف تحليلنا هو الوصول إلى صوغ منهج أكثر شمولية للمعطيات المتوافرة لدينا الآن، ومن ثم قدرتنا على الرؤية المبصرة للمفاهيم المتأتية منها لرفد المستقبل. لن نحاول الرجوع إلى كل عمل كتب حول موضوع هذه العلاقات بخصائصها الثابتة والمتأرجحة. وقد نظن أنه حتى لو أن ذلك كان ممكناً، فإن توقعاتنا ستظل مصدر شك إلى أن يتحقق ما يُقارِب ما توقعناه للعلاقات بين السودان والدول الخليجية. وعلى الرغم من أننا نشك في أن هذا التحقق سيتطابق تماماً مع الواقع، نظراً إلى المدى الواسع لتناول مثل هذا؛ زماناً ومكاناً، والتباينات الحاضرة والمستقبلية بين الدول التي تحتل الحيز المكاني، ومتغيرات السياسة في المدى الزماني، فإن اهتمامنا

(1) أحمد نبيل، المجلّة العلميّة، 11 مايو (أيار) 2014، على الرابط التالي:
http://www.engzenon.com/author/ahmad

(2) الأوتار فائقة التناظر، المجلة العلمية، 11 مايو (أيار) 2014، على الرابط التالي:
http://www.engzenon.com/2014/05/11/10942

سينصب على توفير تقييم نقدي يسعى إلى تحديد مدى وحيز نموذجي من الأمثلة القابلة للتحقق.

إن هذا التحديد المطلوب هو أشبه بالطريقة الإجرائية لبحوث «علم الآثار»، الذي «يُعرف ليس فقط من حيث كونه يهتم بالماضي وبالتغيرات الكرونولوجية، طالما أن ذلك هو في الأساس فضاء خاص بالمؤرخين»[3]، أي «إنه علم يتميز باهتمامه بفضاء الثقافة المادية»[4]. ومثلما يهتم علماء الآثار بمحاولة «تحقيق وعي ذاتي نقدي فيما يتعلق بالثقافة المادية»[5]، يهدف جهدنا؛ باعتباره ضمن سياق العلوم السياسية، إلى تقويم جملة الأوضاع المترتبة على الحراك الكلي للعلاقات الدبلوماسية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين هذه الدول، وقراءة القوانين الناظمة لأساليب التعرف على درجات التغير التاريخي، والتواصل وفق مسارات الحاضر، والتكهن بمجريات الأمور في المستقبل.

لهذا، فإن الاشتغال برسم لوحة مستقبلية للعلاقات السودانية- الخليجية، قد تبدو للبعض سريالية، لأنها ربما تدخل -كما يقول إياد حسين عبدالله، في حديثه عن «فن التصميم نسق المعرفة المركبة»- في «سياحة فكرية عميقة تشارك عديداً من البنى الفكرية للأنساق المعرفية من أجل الكشف عن جوانب عديدة في بناء الثوابت الشكلية الموزعة على محوري الزمان والمكان، وتأسيس سلم إحالات داخلية تحرك الصدى وتكشف عن الخطابات الجمالية والوظيفية لفن التصميم»[6]، التي يحددها في جانبين أساسيين، أولهما: البناء الثقافي، الذي يختص بالمعاني العلمية والفنية والروحية كجزء من الحضارة. وثانيهما: بناء حضاري يجسد المعاني المادية والتقنية والأشياء، التي نستعملها، والتي تحتضن المنظومة الثقافية[7]. وهذا ما نتقصده في

(3) استخدام التناظر الوظيفي والقياس فى علم الآثار، موقع شبكة ومنتديات قدماء، 6 مايو (أيار) 2011، على الرابط التالي:
http://www.qudamaa.com/vb/showthread.php?t=24548

(4) المرجع السابق.

(5) المرجع السابق.

(6) إياد، حسين عبدالله، «فن التصميم نسق المعرفة المركبة»، الخميس 13 أغسطس (آب) 2009، ديوان العرب، على الرابط التالي:
http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=19117

(7) المرجع السابق.

هذا الطرح إذا اعترفنا بأن مصطلح الخليج هو إشارة دالة على مجموع، فإن للدول العربية الخليجية المسماة به أكثر من سياسة خارجية تجاه السودان، كما أن للسودان رؤيته الخاصة في علاقاته الثنائية والجماعية بهذه الدول؛ على الأقل في الحقبتين اللتين يمكن حساب نتائجهما في المعادلة السياسية الثنائية والجماعية، وهما الماضي بكل تداعياته المرصودة، والحاضر بكل حمولاته المعيشة، ويبقى لنا المستقبل بكل صور التطلعات المأمولة.

استعادة الماضي

إن العلاقات السودانية- الخليجية قد عادت إلى الحاضر من الماضي، متجاوزة حالات التعثر كافة، ويعمل القائمون عليها على التسامي فوق متاريس الفهم المُقْعِد، والانطلاق بها إلى رحاب المستقبل الواعد، وكأني بالجميع يقول: إن ما كان فقدَ مضى، أي «من المستحيل استعادة الماضي ومشاكله واحتقاناته وظروفه ووراثة عداواته وطريقته في النقل والعقل والنظر والتحقيق»[8]، على الرغم من أنّ السياسة مغرمة، فيما يبدو، «باستبدال خلافات الحاضر بخلافات الماضي»[9]، أو استعادة الماضي كلما أطلت بادرة خلاف برأسها في فضاء العلاقات المشتركة، إلا أننا كدارسين للسياسة والتاريخ مطالبون بالعناية بإجابة أسئلة الماضي بمنطق الإيجاب لمصلحة الحاضر، حتى ولو كانت مصادر الإجابات متنافرة ومتعارضة ومتناقضة. وذلك بتقدير أن معرفتنا الآن بالحقائق هي أفضل من سابقاتها، وابتعادنا عن حمأة الحدث أطفأت عاطفة التأزم في نفوسنا، وأن قدرتنا على تكييف إجابات موضوعية وصريحة هي أكثر احتمالاً مما كان إبان فترات التأزم ومجايلات الصراع.

وهذا يحيلنا إلى الحديث عن جملة المعرفة المتوافرة لدينا بوقائع التاريخ، أو كما يقول عبدالكريم بوهو، في مقالة له بعنوان: «مجزوءة الوضع البشري... مفهوم التاريخ»: إنه «إذا كانت المعرفة بالماضي هي بالضرورة معرفة نسبية ومشروطة بمنهجها، فإن القبول بهذا المعطى يجعلنا نقول باستحالة استعادة الماضي كما هو،

(8) http://www.alawan.org/article14271.html

(9) المرجع السابق.

لذلك يدفعنا التفكير الفلسفي في مفهوم التاريخ إلى عدم الاطمئنان لأي أثر، أو وثيقة تاريخية، ما لم نخضعها للنقد الخارجي والداخلي؛ فالمؤرخ مثلاً، لا يكفي أن يحقق الواقعة التاريخية، وينفض عنها غبار الشك والريبة، إنما يترتب عليه أن يعيد بناء التاريخ انطلاقاً من الوقائع التي حققها، وخصوصاً أن هذه الأخيرة لا تحتل مكانها في التاريخ إلا إذا أدمجت في سياقها؛ فالحدث التاريخي إذن، هو واقعة مبنية وليست معطاة»[10]. ونحن هنا لا نتقصد الاستعادة بمعناها الحرفي، ولا ينبغي لنا، وإنما نحن مطالبون بكتابة تاريخ يعتمد وثائق اللحظة الباذخة، التي تشهدها العلاقات السودانية– الخليجية، استجلاء لصحة المواقف، وتوضيحاً لما اُشتُبه فيه من مضامينها، وتصحيحاً لسوء الفهم في مقاصدها. وذلك، تدعيماً لذاكرة جماعية تأخذ من التاريخ ما يُعين على الحركة لا الجمود، وتوثق للاتفاق لا الخلاف، وتدعو للتعاون والتعاضد والتكاتف والتكامل لا التفرق والنفاق والشقاق.

لقد جرت تحت جسور هذه العلاقات مياهٌ كثيرة، لم تكن جميعها نقية، أو صالحة للشرب، وشهدت صِلات الخرطوم ببعض عواصم الخليج تأرجحاً مستمراً في العقود الثلاثة الأخيرة، حيث ظلت العلاقات تتطور إلى أفضل مستوياتها ثم يكاد يبلغ التوتر فيها حد القطيعة. وقد بُذلت على مدى السنوات جهود حثيثة ما كانت تنجح إلا لتفشل ثانية وثالثة ورابعة، وتعثرت مصالح مرسلة كثيرة كان يمكن أن توفر هي الأخرى ضمانات صحة الاستمرار. ولكن تصفية ما علق بهذه العلاقات من شوائب أصبح مُمكناً الآن فقط، واحتمالات نجاحه بادية أكثر من أي وقت مضى. وعلى هذا الأساس، تتحدد الرهانات المتعلقة بإعادة كتابة التاريخ، أو استعادته، لمصلحة الراهن، وبطريقة تَعَمُّد استحضار إيجابيات الماضي لتثبيت عرى الحاضر؛ تأسيساً للمستقبل. ويمكن بذلك أن نطمئن للإجابة عن السؤال المطروح قديماً وحديثاً، وهو: إلى أي مدى ستظل المعرفة التاريخية بهذه العلاقات تحدياً كبيراً يواجه فاعليتنا في بناء مصالح الحاضر والمستقبل؟[11]، إذ إننا على الرغم من تطور العلوم والوسائل التكنولوجية، التي تساعد على توثيق وأرشفة الوقائع والأحداث، والتي تسير في

(10) عبدالكريم، بوهو، مجزوءة الوضع البشري: مفهوم التاريخ، ثانوية مولاي رشيد بأجلموس، على الرابط التالي:
http://aguelmous.over-blog.com/article-46327116.html

(11) المرجع السابق.

اتجاه تجاوز الحدود الجغرافية والسياسية للدول، ما زلنا نتناقل المرويات الشفاهية والظنيات المُعَطِّلَة لقدرتنا على النظر الموضوعي، الذي يحسب المصلحة المتأتية من التواصل، لا ضياعها المهدور بالانقطاع. وأحياناً، قد تكون الإجابة الصحيحة هي في طرح المزيد من الأسئلة الإشكالية، التي تُعين على تحفيز الذهن لتوليد المزيد من الأفكار لصحة كل الإجابات الداعمة للعلاقات.

ومثلما نحتاج إلى صوغ محكمة لاستراتيجية العلاقات المستقبلية؛ السودانية- الخليجية، وأسئلتها الحرجة والحارقة، فإننا -كما ألمحنا- في حاجة أخص لإعادة صوغ الماضي، أو فحص حوداثه وإحداثياته بقراءة تهذيب وتشذيب موضوعية تنفي عنه كل انفعالات اللحظة الماضية. ومهم جداً أن يبدأ الأمر بجرد مخزون «الذاكرة الجماعية- السياسية» لتصويب أخطاء سوء الفهم، ومراجعة أغلاط اللحظة/ الحدث، وتنقية انفعالات العاطفة/ القرار، وترميم هفوات وفجوات الانقطاع الملازمة للأزمات. وحديثنا عن الذاكرة هنا لا ينبغي أن يُنْظَر إليه كتحريف للتاريخ، ولا أن يُعاب عليه تَقَصُّد الإيجابيات وطرح السلبيات جانباً، بفهم أن مخزون الذاكرة ليس هو بالضرورة صِنْواً لحقائق التاريخ، وإنما تأكيد على أن تاريخ الذاكرة الجماعية يلتقي ويفترق مع تاريخ المؤرخين.

ويعرّف المفكر والفيلسوف الفرنسي المعروف أندريه لالاند، في الموسوعة الفلسفية، الذّاكرة بأنها «وظيفة نفسيّة تسترجع حالات ماضية مع معرفتنا لها كماضية»[12]. وكما قيل، فالتذكر ليس فقط عمليّة استرجاعيّة للماضي، وإنما هو عمليّة تَعرُّف على الماضي بمنطق الحاضر. هذا الماضي من الممكن أن يعود ويظهر من جديد في صورة، أو في حركة، أو في فكرة، أو حتّى في استجابة عاطفيّة. وأن الوعي من منطلق حاضره يُسيطر على الماضي، وعلى المستقبل أيضاً. وفي هذا المعنى يقول الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر، في كتاب «الكينونة والزمان»: إن الإنسان هو «كائن الأبعاد الثلاثة»[13]، الذي يعمد لتثبيت قناعاته بضرورة طرح أسئلة نظرية تتعلق

(12) مبحث الذّاكرة، 21 فبراير (شباط) 2011، على الرابط التالي:
https://philoforever.wordpress.com/2011/02/21/

(13) ظهر كتاب «الكينونة والزمان» لأوّل مرّة مطلع عام 1927 ضمن المجلّد الثامن من حوليات الفلسفة والبحث الفينومينولوجي، والتي كانت تُنشر تحت إشراف هوسرل، وفي الوقت نفسه ضمن سحب خاص، ولأنه أحد أشدّ الكتب الفلسفية للقرن العشرين ابتكاراً

بالوجود (الأنطولوجيا)، وهي الأسئلة التي تتركز أساساً على معنى الكينونة. إذ إنّه يسقط المستقبل في الحاضر، ويدمج الحاضر في الماضي، فتكون الدّيمومة مسرحاً للتّذكّر والتّخيّل، وأن الحاضر يفلت باستمرار في اتجاه الماضي، لكنّه لا يصير من الطرف الآخر إلى نهايته، فيبقى الزّمان في حالة هروب مستمر في الاتجاهين[14]. وقد رأى علماء النفس أن الذكريات تمرّ منذ تثبّتها وحتى استرجاعها بالعمليات التالية: التثبّت، والحفظ، والتذكّر وتحديد الذكرى في الزّمان.

ولأن الجمهورية الإسلامية في إيران كانت -إلى حد كبير- قضية هذا الماضي، عندما يتعلق الأمر بالعلاقة مع دول الخليج، فإنه يمكننا تأكيد أن بداية العلاقات السودانية- الإيرانية وتعميقها لم يكن صناعة خالصة لحكومة الرئيس عمر حسن أحمد البشير، «فقد بدأ هذا التحرك نحو إيران قبل وصول الإسلاميين إلى الحكم في السودان، وتم تعزيز أرضيته في فترة حكومة الصادق المهدي ما بين (1986-1989)، وما زالت شخصية الصادق المهدي، الذي زار إيران أكثر من مرة تحظى بالاحترام في الأوساط السياسية الإيرانية. وعلى الرغم من الحديث عن موقفه المحايد من الحرب العراقية– الإيرانية، فإن الإيرانيين يزعمون أنه كان مؤيدًا لهم في هذه الحرب، وتقديراً له جرى الإفراج عن عشرات الأسرى السودانيين، الذين أُسروا على الجبهة مع العراق، وكانوا قد أُرسلوا للقتال إلى جانب العراق في زمن نميري»[15]. وكان معلوماً –وقتها- أن وزير خارجيته الدكتور حسين سليمان أبو صالح يقف على النقيض منه، ولم يخف تأييده للعراق ضد إيران. ولكن «ومهما يكن من شأن موقف السودان من الحرب، فقد أغضبت زيارات الصادق المهدي لطهران،

وخطورة، فهو ما فتئ يتحوّل إلى مصدر إلهام أو إلى خصم أساسيّ لأجيال من الفلاسفة والمفكّرين، من سارتر إلى دريدا، ومن أدورنو إلى هابرماس، وليس من قبيل الصدفة أنّه قد تُرجم إلى أكثر من عشرين لغة في العالم. وعلى الرغم من مرور ما يزيد على ثلاثين عاماً على موت هيدغر (1889-1976)، فإنّ سؤاله عن معنى الكينونة ما زال يُطرح في نضارته الأولى وبحماسة مثيرة. إنّ تساؤلات هيدغر وبحوثه عن زمانية الكائن في العالم بعامة، وماهية العقل الإنساني وتاريخ الحقيقة الذي يستند إليه وهشاشة تصوّراتنا عن الإنسانية، وأزمة حداثة التنوير، والتباس جوهر التقنية النابع من تصوّر خطير وغامض للعلاقة بالكائن، وانسحاب آداب التألّه من أفق الإنسانية الحالية، والخطر المحدق في بيئة العالم... هي اليوم أطرف وأقوى ما تمتلكه الفلسفة المعاصرة من أدوات تفكير في مشاكلها وفي مستقبلها.

(14) المرجع السابق.

(15) فاطمة، الصمادي، تقرير «السودان وإيران: تبعات انهيار التحالف»، مركز الجزيرة للدراسات، الاثنين، 22 سبتمبر (أيلول) 2014، على الرابط التالي:

http://studies.aljazeera.net/ar/reports/2014/09/201491872725827223.html

الدول الخليجية، بغضّ النظر عما إذا كان محايداً أو منحازاً في النزاع العراقي- الإيراني؛ فلقد كانت دول الخليج العربية ملقية بثقلها وراء العراق آنذاك»[16].

وتجدر الإشارة إلى أن تلك العلاقة الخاصة بين المهدي وإيران كانت -فيما بعد- سبباً في أزمة دبلوماسية بين طهران والخرطوم؛ حينما أزاح البشير حكومة المهدي عن السلطة في الثلاثين من يونيو (حزيران) عام 1989، قادت إلى حد استدعاء السفراء، قبل أن تستقيم وتبدأ في التطور لاحقاً، وإلى درجة ولدت الشكوك، وزاحمت ملف العلاقات الخارجية السودانية بالكثير من الشبهات والاتهامات والمحاكمات.

ولا شك أن متغيرات كثيرة حدثت منذ ذلك الحين، وتدافعت قضايا كثيفة في السودان، ووقعت أزمات وحروب مدمرة في منطقة الخليج خصوصاً، كان لإيران والعراق نصيب الأسد فيها، وتفاقمت صراعات الشرق الأوسط وقضية فلسطين بصورة عامة، وأردفتها انتفاضات ما يُسمى بـ«الربيع العربي» بتعقيدات جديدة. إلا أنه بعد «عاصفة الحزم»، التي أوجدت معادلات جديدة في الخريطة السياسية العربية، أصبحت العلاقات السودانية- الخليجية تأخذ بعداً آخر، أُسقِطَت فيه كل هواجس الماضي، ورُفعت التحفظات، وتوحدت خيارات الأطراف المنضوية تحت لوائها. وتُشير القراءات الفاحصة لخريطة هذه العلاقات إلى أن الجميع يسيرُ بخطى حثيثة نحو اتجاه التعاون وتوطيد الروابط، بل صار ملف الخرطوم يحظى بكثير من الاهتمام والأولويات في العواصم الخليجية.

راهن العلاقات

تَتشكَّل في عالمنا قناعات بـ«أن اللحظة الآنية ستطغى دوماً على الماضي حتى لو كان قريباً»[17]. لهذا، مَثَّلَ راهن العلاقة بين السودان ودول الخليج، موضوعاً لأحاديث وأقاصيص كثيرة تلونت مخرجاتها بلون كُتَّابِها. على الرغم من أن غالبها؛ بأبعاده

(16) المرجع السابق.

(17) توم، تشاتفيلد، «كيف نتعامل مع التراكم الهائل للمعلومات على الإنترنت؟»، بي بي سي، عربي، 23 يونيو (حزيران) 2016، على الرابط المختصر التالي:

http://cutt.us/10N8

الإيجابية والسلبية، لم يأت من فراغ، وإنما تأتى من جدية التساؤل حول ما استجد فيها وأحدث هذا التحول الكبير؛ بين ما كان من أمرها إلى وقت قريب، وبين ما آلت إليه بعد «عاصفة الحزم»، بل جاءت –كثيرها– لتبحث عن المقارنات الممكنة بين سلسلة النتائج الإيجابية، التي تم التوصل إليها بمشاركة السودان العسكرية الفاعلة، وبين بعض الحالات العربية المماثلة، والتي انخرطت بشكل فاتر، وترددت في أن تفعل ما فعله السودان من انخراط نشط في المجهود الحربي في الجو وعلى الأرض. واليقين أن قوة علاقات الراهن تنعكس إيجاباً على مسارات مستقبل هذه العلاقات.

لقد كان السودان بالفعل سباقاً للانضمام لـ«عاصفة الحزم»، الأمر الذي أحدث نقلة نوعية في العلاقة مع دول الخليج عموماً، ومع المملكة العربية السعودية خصوصاً، إذ طغى الاهتمام الرسمي والشعبي بأرض الحرمين الشريفين، والخطر الذي يتهدد المملكة من تمدد النفوذ الإيراني، على ما عداه من اهتمامات، بما في ذلك «عودة الشرعية» في اليمن. وعندما أعلنت الخرطوم المشاركة، جاء بيان الجيش السوداني، في إعلان مصور: «إن المشاركة في عمليات عاصفة الحزم تأتي من منطلق المسؤولية الإسلامية لحماية أرض الحرمين الشريفين، والدين والعقيدة»، وأعلن أن «مشاركة السودان بقوة ومنعة وعزة في هذه العمليات، لتبقى السعودية آمنة مستقرة، بلداً حراماً»[18]. وهذا موقف أجمعت عليه القوى الفاعلة في السودان بلا استثناء، فيما رأى مراقبون أن الخرطوم سعت للاقتراب أكثر من السعودية ودول الخليج، في مقابل مزيد من التباعد عن حلفائها القدامى، وعلى رأسهم إيران، التي كانت العلاقة معها –وفق كثير من السياسيين السودانيين– عبئاً على الخرطوم، بل كانت أحد أسباب استمرار حصار السودان وعزلته سياسيّاً والضغط عليه اقتصاديّاً. فجاء التحول في الموقف السوداني من الصراع في اليمن، وفي غيرها من بؤر الصراع المحتدم في أكثر من جبهة في الشرق الأوسط، لصالح السعودية، وفق ما يسميه البعض بـ«التكيُّف المرن» مع المتغيرات في موازين القوى في المنطقة، وهو تكيُّف –كما أسلفنا– قد وجد تأييداً منقطع النظير من جميع القوى السياسية السودانية[19].

(18) انظر: «لماذا شاركت السودان بالتحديد في عاصفة الحزم؟»، نون بوست، 27 مارس (آذار) 2015، على الرابط التالي:
http://www.noonpost.net/content/6011

(19) انظر: «شؤون خليجية»، على الرابط التالي:

إن ما ينبغي التذكير به، هو أن العلاقات السودانية- الخليجية لم تكن أبداً ذات بُعد واحد، أو هي متساوية في خطوط التلاقي بين الخرطوم والعواصم الخليجية المختلفة؛ فإذا كانت قد تأرجحت في مساراتها مع الكويت والرياض وأبوظبي بعد غزو العراق للكويت، وبسبب العلاقة مع إيران وشبهة التواصل مع جماعات الإسلام السياسي، إلا أنها ظلت مستقرة جداً، بل متطورة مع الدوحة والمنامة ومسقط. وبعد تَفَهُّم جملة المواقف السودانية، عادت قوية مع الكويت، وتطورت مرة أخرى مع أبوظبي، وتفاعلت بصورة أجدى مع الرياض. وقد شهدت تحولاً ملحوظاً مع تدخل دولة قطر كوسيط في أزمات السودان، التي ظلت «تتحرك بهمة عالية في وساطتها. في أزمة دارفور»[20]. ولا تزال تمارس دوراً في إعادة البناء والاستقرار في دارفور عبر «بنك الإعمار».

وقد يحسب هذا للدبلوماسية السودانية، التي نجحت «في إعادة الثقة في العلاقات مع دول مجلس التعاون الخليجي الست، وبالأخص السعودية والإمارات، من خلال الزيارات المتعددة، التي تم فيها تأكيد أزلية تلك العلاقات، وتبديد اللبس الذي اعترى العلاقات الثنائية خلال الفترة الماضية»[21]. فالحفاوة البالغة التي يحظى بها السودانيون من أشقائهم الإماراتيين، مثل دول الخليج كافة، سواء كان ذلك على مستوى المسؤولين، أو مستوى المواطنين، تدل على أن الإمارات تسعى إلى ترتيب علاقاتها مع السودان، وخصوصاً أن مستقبل السودان واعد ليصبح أحد أهم دول أفريقيا على صعيد التنمية، بالإضافة إلى أنه يحتاج على مدى السنوات القادمة إلى تطوير البنى التحتية، التي تعتبر عاملاً مهماً في استقطاب الاستثمارات الخارجية وتدفق رؤوس الأموال، فهو بلد ممتد المساحة سيحتاج لتنفيذ مشاريع البنية التحتية وحدها إلى مليارات الدولارات، وهذا مجال خصب لكي تخوض فيه

http://klmty.net/444302

(20) حيدر، إبراهيم علي، «مستقبل العلاقات السودانية- العربية»، صحيفة «البيان»، 7 ديسمبر (كانون الأول) 2010، على الرابط المختصر التالي:

http://cutt.us/o1nS

(21) عباس، محمد صالح عباس، «الحقائق الجديدة: اختراقات كبيرة للدبلوماسية السودانية وسط الدول المؤثرة والتكتلات المهمة في العالم رغم التحديات المهولة.. انفراج العلاقات الخارجية»، خدمة (smc)، 25 فبراير (شباط) 2015، على الرابط التالي:
http://www.alyoumaltali.com

رؤوس الأموال الإماراتية. ويضاف إلى ذلك، أن رقعة الأراضي الصالحة للزراعة في السودان واسعة، والمياه اللازمة للزراعة متوافرة [22] .

يجب، ونحن نتحدث عن الاستثمار، «تأكيد أن نوعية الاستثمار هي التي تسهم في تمتين العلاقة، خصوصاً حين تكون هناك شواهد يمكن الرجوع إليها (...) ويوحي تدشين مؤتمر المانحين بالكويت بمؤشرات إيجابية في إطار العلاقات والتنمية. وعلى الرغم من أن التاريخ لا يعيد نفسه، ولكن قد تفيد من تجربة سابقة في التعاون المشترك خلال ثمانينيات القرن الماضي(...) ويكتسب المؤتمر أهمية قصوى في بعث العلاقات السودانية- العربية وبالتحديد الخليجية، ليس على الصعيد الاقتصادي فقط، بل على كل الأصعدة. فقد كسر المؤتمر جفوة وحساسية استمرت طويلاً، وبالتحديد منذ غزو العراق للكويت عام1991(...) ومن هنا يعتبر المؤتمر فاتحة جديدة لعلاقة سودانية في مجمل المنطقة»[23]. وقد شهدت مدن وبلدات شرق السودان الكثير من ثمار هذا المؤتمر، والدعم الكويتي المباشر لمشاريع الإعمار والبنى التحتية والتنمية، المتعدية للراهن إلى المستقبل.

من جانب آخر، يكشف التقارب السعودي– السوداني «بعداً جديداً وحيوياً للسياسة الخارجية للمملكة في عهد الملك سلمان بن عبدالعزيز، بتأكيد العمق الأفريقي والإسلامي والسني العربي، في إطار حزمة من التعاون النشط الاستراتيجي والعسكري والسياسي والاقتصادي في مواجهة التهديدات الخارجية(...) فهناك علاقات استراتيجية وحيوية تربط السعودية والسودان، التي أصبحت عمقاً وظهيراً أفريقياً وعربياً وإسلامياً قوياً للرياض، بتوقيت تواجه فيه المملكة تحديات أمنية ووجودية، وتهديدات إيرانية متصاعدة في اليمن وسوريا والعراق»[24]. فالسودان يُعدُّ ذا «موقع استراتيجي مهم، وتأمين دعمه للسعودية يقلص النفوذ الإيراني بالقرن

(22) نفيسة، محمد الحسن، «العلاقات السودانية- الإماراتية... قفزة نوعية»، صحيفة «الرؤية» الإلكترونية، الأحد 22 فبراير (شباط) 2015، على الرابط المختصر التالي:

http://cutt.us/NrcD8

(23) المرجع السابق.

(24) انظر: «أسباب التقارب (السعودي– السوداني) استراتيجيًا وعسكريًا واقتصاديً»، شؤون خليجية، 4 نوفمبر (تشرين الثاني) 2015.

الأفريقي ومحيطه، مما يفسر كثافة القمم السعودية- السودانية التي بلغت أربع زيارات خلال ستة أشهر، منذ بدء عاصفة الحزم(...) حيث تلعب القوات البرية السودانية دورًا قابلاً للنمو والتطور في اليمن، بحسب تطور المعارك وتطبيع الأوضاع الأمنية»[25]. وهناك رضاً عميق لدى الطرفين بأن ما تحقق يكافئ التوقعات المرصودة في الرياض والخرطوم.

ويلزم تأكيد أنه ما من شك في أن المشاركة السودانية في «عاصفة الحزم» كانت مبادرة وطنية خالصة، عكست، فيما عكست، توجهاً ظل يتنامى بسرعة بين الخرطوم والرياض بعد تولي جلالة الملك سلمان بن عبدالعزيز آل سعود قيادة الدولة السعودية. وكان للإشارات الإيجابية المتصالحة، التي استشفتها الخرطوم من جملة مواقفه وتوجهاته، والتي تزامنت مع تململ القيادة السودانية من محاولات نشر التشيع المتنامية في بعض الأوساط المحلية السودانية، والاستغلال الواضح لبعض حالات الهشاشة الاجتماعية في البلاد من قِبل إيران. وكانت لتصرفاتها الإقليمية مساهمتها المقدرة في زيادة التوتر بين الخرطوم وطهران. فعمدت السلطات السودانية، في الحالة الأولى، إلى إغلاق كل المؤسسات الثقافية والمدارس الإيرانية في البلاد. وفي الحالة الثانية، اغتنمت حادثة اعتداء المواطنين الإيرانيين على مقر السفارة والقنصلية السعودية في كل من طهران ومشهد، فسارعت بقطع العلاقات الدبلوماسية، وسحب البعثة الدبلوماسية السودانية من طهران، والطلب إلى الدبلوماسيين الإيرانيين بمغادرة السودان[26].

إن هذا الموقف السياسي والدبلوماسي الداعم للسعودية، نظرت إليه الرياض بإيجابية تعكس العمق الاستراتيجي الحقيقي، الذي ربط ويربط بين السودان والمملكة على مرّ التاريخ، وعلى المستويات كافة، سواء منها السياسي، أم الثقافي، أم الاقتصادي، أم الاجتماعي، أم الأمني. وهذا الأخير الذي بات يفرض نفسه بقوة

(25) المرجع السابق.

(26) أثارت هذه الخطوة بعض التساؤلات في الشارع السياسي السوداني عن مدى جدواها للسودان والسعودية، ورأى قطاع من المثقفين السودانيين أن فيها تعجلاً، وأن المصلحة كانت تقتضي الإبقاء على شعرة معاوية، فقد تحتاج التدابير السياسية المستقبلية للسودان وللتحالف لمثل شعرة الصلة هذه.

على الراهن، بالنظر إلى كثافة التحديات، وتعاظم قوة الجماعات المتطرفة في اليمن والعراق وسوريا وليبيا، أو غطرسة وتجبر قوى إقليمية توسعية، جعل البلدين يقتربان من بعضهما بصورة أسرع وأكثر وأعمق من أي وقت مضى، استعداداً للوقوف معاً دائماً ضد الأجندات الأجنبية المهددة لأمن وسلامة واستقرار المنطقة.

وبالقطع، فإنها إشارة مهمة؛ على اقتضابها، التي قال بها فيصل بن معلا، السفير السعودي في الخرطوم، من «أن الملك سلمان بن عبدالعزيز يولي اهتماماً بالعلاقات مع السودان، لتصبح مثالاً للعلاقات العربية- العربية»[27]. فقد سبق أن أكدت المملكة والسودان تعزيز هذه العلاقات ومواجهة التحديات، و«تم الاتفاق على تقوية وتنمية الاستثمارات السعودية في السودان، وذلك لإنجاح المبادرة، التي ابتدرها الملك الراحل عبدالله بن عبدالعزيز، ويتبناها الرئيس عمر البشير من أجل توفير الغذاء للوطن العربي، معرباً عن تطلعه إلى استمرار الدعم بين الجميع في كل المحافل الإقليمية والدولية»[28]. ويُعتبر مجال الثروة الحيوانية، التي يُصدر أكثرها إلى السعودية، جزءاً مهماً ومكملاً للأمن الغذائي العربي، «ويشغل قطاع الثروة الحيوانية مكانة مرموقة عالمياً، حيث يعتبر السودان من أغنى الدول العربية والأفريقية بالثروة الحيوانية»[29]، إذ تقدر فيه أعداد حيوانات الغذاء بحوالي (150) مليوناً، تُمثل الأبقار فيها أكثر من (30) مليوناً، وحوالي (50) مليون رأس من الأغنام، وقرابة (40) مليون رأس ماعز، وأكثر من (5) ملايين رأس من الإبل، وأعداد كثيرة جداً من الغزلان وغيرها من حيوانات الحياة البرية الصالحة للاستهلاك البشري، إضافة إلى حوالي (5) ملايين من الخيول.

---

(27) انظر: «الملك سلمان يدعو لجعل العلاقات السودانية- السعودية مثالاً للعلاقات العربية- العربية»، صحيفة «اليوم التالي»، يوم الاثنين 6 يونيو (حزيران) 2016، على الرابط التالي:

http://almshaheer.com/article-2062488#

(28) انظر: «المملكة والسودان يؤكدان على تعزيز العلاقات ومواجهة التحديات»، موقع النيلين، 9 يونيو (حزيران) 2016، على الرابط التالي:

http://www.alnilin.com/12785049.htm

(29) صلاح، إبراهيم، «مستقبل العلاقات السودانية- السعودية.. الفوائد والخسائر»، موقع تيرا تيوب»، 18 يناير (كانون الثاني) 2016، على الرابط التالي:

http://www.tetube.net/46695

لقد أدركت القيادة في البلدين أنهما يعيشان في عالم سريع التحولات، ويتجه نحو تعدد التحالفات؛ وإن لم يكن هو كذلك الآن، ويُعول فيه على التكتلات المنسجمة والمتجانسة والمتكاملة، القادرة على الاستجابة لتطلعات شعوبها من جهة، التي بإمكانها الصمود في وجه الهزات السياسية والاقتصادية العالمية من جهة أخرى، والتي تبدو تداعياتها واضحة سياسياً واقتصادياً على كل دول العالم؛ الكبرى منها والصغرى. ففي مثل هذه الظروف كان لا بد أن يصطف السودان إلى جانب السعودية سياسياً وعسكرياً. وقد تُرجمت خطوات هذا الاصطفاف الأولى في الجانب السياسي بتقليص العلاقات مع طهران ثم قطعها -كما تقدمت الإشارة إليه- وأُشفعت ثانية بالموقف الفوري من «عاصفة الحزم»، والاستجابة السريعة بمشاركة الطيران السوداني في الحملة العربية لاسترداد الشرعية في اليمن بقيادة السعودية. وعندما طلبت المملكة من الحلفاء في العاصفة إرسال قوات برية إلى اليمن، كان السودان من أوائل المستجيبين، وبعث تجريدات من القوات المسلحة السودانية إلى عدن، قوامها تشكيلات من ضباط وجنود الدبابات والمدفعية والمدرعات القتالية والطائرات الحربيّة.

في الاتجاه المقابل، فإن المملكة العربية السعودية، ودول الخليج الأخرى، ثمنت عالياً للقيادة السودانية هذا الدعم المتميز للشرعية في اليمن، والمساهمة الفاعلة في الحفاظ على أمنها واستقرارها واستكمال وحدتها الترابية، فيما كان هناك إجماع خليجي على دعم أخوي للسودان، قُدِمَ قبل المشاركة وبعدها. فكانت هذه المواقف من الجانبين مجتمعة تعزيزاً لمحفوظات الأرشيف السياسي الإيجابي للجانبين، وتوثيقاً لتطلعات شعوب الطرفين في السودان والخليج، التي تختزن ذاكرتها الجمعية صوراً زاهية من روابط ووشائج الأخوة، رفدتها على الدوام حالات الدعم المتبادل اللا مشروط سياسياً واقتصادياً بين القادة، وأكدتها المشاركات الشعبية الميدانية؛ جنباً إلى جنب، في كل القضايا المقدسة بالنسبة للطرفين في السودان والخليج.

وفي جانب العلاقات الدبلوماسية، لا بد من التركيز هنا على أن قرار الحكومة السودانية قطع العلاقات مع إيران قد مَثَّلَ تحولاً جذرياً لسياساتها الخارجية، وتأكيداً جدياً «لنواياها تجاه السعودية ودول الخليج، ويعكس هذا القرار ملامح

المرحلة القادمة(...) وكان السودان، قد حصل على وعد من الملك سلمان برفع العقوبات المفروضة على السودان دولياً(...) كما وعدت المملكة بإنشاء صندوق لتحفيز الشركات السعودية للاستثمار بالسودان، خاصة في مجالات الغذاء حتى يكون سلة غذاء العالم العربي»[30]. وينبغي تأكيد أنه «في الوقت الذي لا تزال أصداء القطيعة المفاجئة مع إيران مستمرة وتتصدر عناوين الصحف السودانية والإيرانية، تحقق العلاقات السودانية- السعودية قفزات متقدمة، وتزداد مرونتها، وتتسع دائرتها يوماً بعد يوم. ولكن من المبكر الحكم على مجمل نجاحاتها وانعكاساتها على المشهد الداخلي السوداني، وأثرها على الصراع الخليجي- الإيراني، فأمامنا متسع من الوقت لتظهر على السطح نتائج هذه العلاقة ومعرفة حجم الحجارة، التي رمت في المياه الراكدة»[31].

ثوابت المستقبل

الرؤيا هي نافذتنا إلى ثوابت المستقبل، وإذا كان هناك من شيء يمكن أن يتعلمه الإنسان من المؤسسات الناجحة في عالمنا المعاصر، فهو سعيها إلى المستقبل بهذه الرؤيا، وغير قليل من الخيال، إلى جانب قدرتها على التحلي بالجرأة في دفع الرؤى المستقبلية إلى حافة الإمكان بحيث يوما ما، مع مساعدة من الأجيال الجديدة من المبدعين والمستكشفين، يمكن لهذه الرؤيا المستقبلية أن تصبح حقيقة واقعة. ونحن ننظر من خلال ما يحدث اليوم من تطور متسارع للعلاقات السودانية- الخليجية، ينبغي أن نتذكر أن هذا التحول الجدي في مسار هذه العلاقات يمكن أن يكون صانعاً للمستقبل المشترك، إذا صاحبته رؤيا، وبكيفيات يمكن التحكم في وجهتها خدمة للصالح العام لشعوب الطرفين، وللأمة العربية والإسلامية، فيما بعد حدود الخصوصيات المباشرة للجانبين.

---

(30) سمير، الربيعي، «السودان اللاعب الأكبر على الحصان السعودي»، وكالة سكاي برس، 16 يناير (كانون الثاني) 2016، على الرابط التالي:

http://skypressiq.net/11533--.html

(31) محمد بحر الدين إدريس، «عودة العلاقات بين السودان والسعودية- دلالات وتحديات»، موقع «سودانايل»، 10 يناير (كانون الثاني) 2016، على الرابط المختصر التالي:

http://cutt.us/4EpXX

ففي فلسفة الزمن، الذي نُقايس به جملة أوضاعنا الراهنة، تُعتبر حركة التضامن السوداني– الخليجي الحالية هي الاعتقاد بأن الحاضر فقط هو الموجود بيننا، ونحن منفعلون به نتيجة هذا الحضور، وأن الماضي قد ولَّى بخيره وشره، والمستقبل هو تصور خيالي غير واقعي؛ نستشرفه فقط بما نملك من أدوات توقع غير معيارية، ومتغيرات لا نستطيع التحكم في اتجاهاتها. وقد لا تكون لنا قدرة ادعاء، أو تكهن، مثل بعض الشخصيات الدينية والحكماء والعرافين، الذين يزعمون رؤية ما في المستقبل، إذ تعتبر الأديان المستقبل عندما تتناول قضايا مثل البعث، أو الحياة بعد الموت، والإيمان بالآخرة، الذي يركز على دراسة ما هي نهاية الوقت، وكيف ستكون نهاية العالم[32]، ولكننا بالمقابل نجتهد في مراكمة الأسباب الموضوعية المتأتية من خطوات العمل وفعل الإنجاز وتواثق الأطراف على استمرار التعاون والتآزر، التي أوجدتها تحالفات «عاصفة الحزم»، والموحية بالتفاؤل بأن المستقبل سيكون أفضل.

ربما لا يكون هناك تطابق، أو مُمَاثَلة، بين ما تقدم ذكره من رؤية الأديان وبين تقديرات وترتيبات السياسة، التي نحن بصدد النظر في تقويمها، ولكن الجهود المنظمة القاصدة لجدوى علاقات الراهن، والعابرة لمُقْعِدَات هذا الراهن، والتي قادت للانخراط في التحالف العربي، والتي شكلت من بعدها التحالف العسكري الإسلامي، هي التي تُساعدنا على بعض التكهن، أو توقع تَشَكُّل صور الملامح الكلية للمستقبل. إذ إنها قد توصلنا إلى حقائق تُستمد من الملاحظات والقراءات المرافقة لتطور الأحداث المفضية لهذه التحولات المهمة في الحاضر، التي تدعونا إلى الاطمئنان إلى مسيرتها القاصدة إلى كمال الطموحات.

نعم، فمثلما تم اكتشاف المستقبل من خلال عديد من الحركات الفنية والأنواع الثقافية الإبداعية، يمكن التكهن باتجاهات العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية من عمل جماعي منظم، وإن بدأ عسكرياً وقتالياً في وجهه المُسْتَحْضَر. ومثلما بحثت حركة الفن المستقبلية في بداية القرن العشرين كل وسيلة فنية، بما في ذلك الرسم والنحت والشعر والمسرح والموسيقى والعمارة، وحتى فن الطهي،

(32) Hastings, J., Selbie, J. A., & Gray, L. H. (1908). Encyclopædia of religion and ethics. Edinburgh: T. & T. Clark. Page 335–337.

لتؤكد حضورها ونوازع روادها المستقبلية، فإن الفعل السياسي بأبعاده العسكرية الحرجة يمكن أن يُشكِّل مستقبلاً من نوع آخر أكثر حضوراً في حياة الناس من أحلام الفنانين. وربما لهذا، كان للمستقبليين بُغْضٌ عاطفيٌ لكل أفكار الماضي، خصوصاً التقاليد السياسية والفنية. وبدلاً من ذلك، فإنهم تبنوا حب السرعة والتكنولوجيا والحركة[33]. فأفادت السياسة من كل ذلك، إذ إن الموسيقى المستقبلية تُشارك في الإشادة بالإدراج، لتضمن في نهاية المطاف التصميم الصناعي، والمنسوجات، والهندسة المعمارية[34]. وقد توسعت الدراسات المستقبلية لتشمل، بجانب المجالات الفنية، الثقافة والاجتماع والاقتصاد والسياسة والتقديرات الاستراتيجية.

جاء في مقال «الفن لأجل الراهن العربي»: «إثر التحولات الأخيرة الحاصلة في المجتمعات العربية، وما أفرزته من نتائج إشكالية انعكست على جميع دول العالم، صار من الطبيعي أن تتحول الأنظار من كل حدب وصوب نحو الإنسان العربي، ولكن هذه المرة للبحث في حضاراته وفنونه. الأمر الذي جعلنا نتلمس الكثير من الملامح والمعطيات المستوحاة من الشرق الأوسط، في لوحات وأعمال فنانين عالميين وعرب قرروا أن يكشفوا الجوانب الإيجابية والجماليات لوجوهنا العربية والإسلامية»[35]، في ذلك تعبير دقيق عن التوافق بين الفهم العالمي لقراءة الراهن، والنظر العربي لهذا الراهن، وكيف يمكن أن ننفذ منهما للتحكم في مستقبل العلاقات السودانية– الخليجية؟

إن الدراسات المستقبلية، أو علم المستقبل، هي العلم والفن والممارسة، الذي يمكننا من افتراض الفرص المستقبلية الممكنة، إذ يؤكد الممارسون المحدثون أهمية وجود مستقبل بديل وجامع لطاقات الأمة، وبدلاً من أن يكون لكل دولة عربية، أو إسلامية، واحدة خطة واستراتيجية لمقاربة متجانسة لمستقبلها الخاص مقابل العام، فإن خلق الفرص المستقبلية الممكنة والمفضلة للعالم العربي والإسلامي تتحقق

(33) Umbro Apollonio (ed.), Futurist Manifestos, MFA Publications, 2001.

(34) Gaddis, John Lewis (2002). The Landscape of History: How Historians Map the Past. New York: Oxford University Press. p. 56.

(35) Umbro Apollonio (ed.), Futurist Manifestos, MFA Publications, 2001

بمقتضيات التجمع، مع أخذ القيود المنهجية المفروضة على إمكان التنبؤ ومقايسة الاحتمالات بالنسبة للبلد الواحد؛ في حال السودان، أو دول الخليج الست، أو التحالف الذي يتعدى كل الأطراف.

فالمستقبل هو ما سيحدث غداً، أي ما سيصف حالنا المشترك بعد الوقت الحاضر، ويعتبر الوصول إليه أمراً لا مفر منه؛ بسبب وجود هذا الوقت وقوانين الفيزياء؛ ونظراً للطبيعة الواضحة للواقع وحتمية توجهنا نحو هذا المستقبل. إن كل ما هو موجود حالياً من علاقات جيدة، إذا حافظنا عليها وطورناها بمعدلات صاعدة، ستكون موجودةً في المستقبل بشكل أفضل وأكمل مما هي عليه الآن، ويمكن تصنيفها على أنها إما موقتة بحدود أزمان، أو رغبة أجيال، وهذا يعني أنها ستنتهي إذا لم نعض عليها بالنواجز، أو دائمة، وهذا يعني أنها ستكون موجودة إلى الأبد إذا حافظنا عليها بوتيرة صاعدة. وبذا، فإن المستقبل ومفهوم الخلود هما؛ كانا ولا يزالان، من المواضيع الرئيسة في حقول الفلسفة، والدين، والعلم، والسياسة، وتحديدهما من غير إثارة للجدل، قد استعصى على الدوام على أعظم العقول[36]. وفي الرؤية الغربية، التي تستخدم المفهوم الخطي للوقت، فإن المستقبل هو جزء من خط الزمن المتوقع والمقدر له أن يحدث[37]. وفي النسبية الخاصة، يعتبر المستقبل مستقبلاً مطلقاً، أو مخروط الضوء في المستقبل، وما يهمنا هنا هو كيف نتحكم في هذا المستقبل باعتبار أنه اتجاه صاعد إلى أعلى وقاصد إلى الأمام، فإما أن نعرج بإحسان خياراتنا، أو نسري معه بإتقان مُنجزِنا، وفي كلٍ خير.

الخاتمة

كان السودان -إذن- من أوائل الدول العربية التي تُعلن تأييدها لـ«عاصفة الحزم» بقيادة المملكة العربية السعودية لإعادة الشرعية في اليمن، وتنخرط بفاعلية في تشكيلاته وعملياته المختلفة. وتبارك، من بَعْدُ، «التحالف الإسلامي» العسكري،

(36) Broad, C.D. (1923). Scientific Thought. New York: Harcourt, Brace and Co. Vol.1 of Buddhist Logic, 1962, Dover: New York. 70-71.

(37) Moore, C.-L., & Yamamoto, K. (1988). Beyond words: movement observation and analysis. New York: Gordon and Breach. Page 57.

الذي دعت له الرياض، ثم تُشارك بفاعلية في مناورات «رعد الشمال».

وثبت أن المشاركة في «عاصفة الحزم» جعلت السودان منسجماً مع ذاته وتوجهاته، ومتناغماً بين مكوناته وقواه الاجتماعية والسياسية، إذ حدث إجماع غير مسبوق بين هذه القوى والمكونات كافة، وبمختلف انتماءاتها، لا سيما وحدة الشعور العام بأن المعركة تعني كل السودانيين بصورة مباشرة، نظراً لتداخلهم الديموغرافي العميق مع شعوب اليمن والجزيرة العربية، ولقربهم الجغرافي عبر البحر الأحمر، واشتراكهم في كثير من تفاصيل الحياة عبر الحقب التاريخية، ونظر إليها كثيرون كأمر دين.

وفي الجانب الدبلوماسي، ذهبت الخرطوم مدى أبعد من كل عواصم التحالف، وتماهت مع الرياض إلى حد قطع علاقاتها الدبلوماسية مع طهران، عندما اعتدى الإيرانيون على السفارة السعودية في طهران وأحرقوا قنصلية المملكة في مدينة مشهد. وهي الحادثة التي أثارت الكثير من القلق في الخليج والمنطقة، ولكن لم يتعد هذا القلق، في غير الرياض والخرطوم، حدود الشجب والإدانة والاحتجاج، واستدعاء السفراء للتشاور.

وبالنظر إلى الخريطة السياسية للمنطقة، وتشابك المصالح، والصيغة الجديدة للتحالفات الإقليمية، يمكننا أن نَخلُص إلى أن الخرطوم استندت في قرارها إلى أسباب كثيرة ومعقدة للمشاركة، يقف على رأسها التركيز على أهمية العلاقات الاستراتيجية طويلة الأمد بين السودان ودول الخليج عموماً؛ والمملكة العربية السعودية خصوصاً.

ويبقى سؤال المستقبل، الذي يفترض أن تنعكس إجابته في ثمرة هذه العلاقات الاستراتيجية على مختلف الأصعدة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والأمنية، لمصلحة الشعوب والحكومات، خصوصاً أنها علاقات تاريخية عميقة الجذور مترامية الأبعاد، وبالتالي فإنها يجب أن لا تتأثر كثيراً بالتقلبات العَرَضية، مثلما كان يحدث في الماضي القريب.